

## ولادة جديدة للحس القومي في دول الشرق الأوسط

التمرد على حكم الأيديولوجيا الإسلامية بداية الطريق للتأقلم مع الواقع



## قومية مقنعة في ثوب وحدة إسلامية

واستغلت قطر، تحديداً، قوتها الإعلامية لإثارة السرد المحلي الذي يربط السعودية بالحرمة الإسلامية في محاولة لتعزيز شرعية النظام الملكي، الذي يجب أن يوازن بين قبيلة ملكية مع تاريخ من الانقلابات، وكذلك حملات التأثير السعودية والإماراتية طويلة الأمد.

## الدول التي لا تزال تدعي تجسيد مثل الحركة القومية، مثل قطر وتركيا، تفعل ذلك فقط كوسيلة لتحقيق غاية قومية

لكن في الخارج، لا تزال قطر تنظر إلى القومية الإسلامية على أنها وسيلة لتأمين نفسها، فقد ساعد قرب الدوحة من الأيديولوجيا الإسلامية على الحفاظ على العلاقات مع حماس، وهي فرع آخر من جماعة الإخوان المسلمين، وتعد هذه العلاقات قيمة بالنسبة إلى إسرائيل التي تستخدمها لإبقاء نشاط حماس في قطاع غزة تحت السيطرة.

وفي المقابل، يساعد الإسرائيليون في تعزيز صورة قطر كوسيط سلام إقليمي، لاسيما في الولايات المتحدة، وتقويض الهجمات من الإمارات والسعودية.

ومع ذلك، حتى أثناء التعامل مع الوحدة الإسلامية، فمن الواضح أن تركيا وقطر تستخدمان أيضا الحركة لتحقيق المصلحة الذاتية، ولا يحاول أي منهما إنتاج حركات إسلامية قوية بما يكفي لتحل محل أنظمتها الخاصة.

وبالتالي تبعد ملايين اللاجئين السوريين الذين تجد أنقرة أنها لا يمكن تحمل تكلفتهم، ولا تزال كل من تركيا وقطر، الحليفين اللذين اجتمعا على فكرة دعم تيارات الإسلام السياسي في بلدان المنطقة، تحاولان وسط كل هذه المعركة استخدام

القومية الإسلامية لإبراز القوة في الخارج، على الرغم من أن أهدافها الأساسية لا تزال قومية بطبيعتها أكثر منها دينية، ويقول المحلل الاستراتيجي بول إن أنقرة تقوم اليوم بتعزيز السلطة من خلال الحركات الإسلامية والسياسيين كتعبير عن المصلحة الذاتية التركية كما أن تقارب البلد مع جماعة الإخوان المسلمين منح قطر الطريق لإنشاء قاعدة عسكرية في الخليج العربي لأول مرة منذ أكثر من قرن، والذي بدوره عمل على تقوية علاقات أنقرة بالدوحة الغربية، التي تدخلت في بعض الأحيان لتخفيف ويلات تراجع العملة التركية.

ومع تحول دول الشرق الأوسط نحو الحفاظ على نفسها، أصبح إقام نفسها في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي أقل منطقية. وبالنسبة إلى دول مثل الإمارات، كان التركيز على القضية الفلسطينية يهدف إلى تعزيز عقد اجتماعي صديق للإسلاميين مع سكانها المحليين.

ولكن مع تغير تصور أبوظبي للتهديد، بدأ يُنظر إلى الإسلاميين لا على أنهم ملازمون للعقد الاجتماعي، ولكن كعملاء لعفن ثوري محتمل. ونتيجة لذلك لم يتم إسقاط القضية الفلسطينية من الأولويات فحسب، بل بدأت تصبح معادية للمصالح الوطنية، حيث أدى عزل إسرائيل إلى حرمان الإمارات من الوصول إلى التعاون التكنولوجي والتجاري والأمني المتزايد الأهمية بالنسبة إلى إسرائيل.

وفي المحصلة لم تكن كل الدول سريعة في الابتعاد عن الأيديولوجيا الإسلامية. ففي ليبيا تجلت الوحدة الإسلامية في إنشاء معاهدة حدودية بحرية مثيرة للجدل في عام 2020 مع حكومة الوفاق الوطني المحسوبة على تيار الإسلام السياسي والمقرية من حكومة الإخوان في تركيا.

وينطبق هذا الأمر على سوريا، فنظام بشار الأسد يشكل حلفاؤه نواة الميول الإسلامية العمود الفقري للمليشيات التي تسيطر على ما تبقى من مناطق المعارضة، المدعومة من تركيا، في الشمال الغربي للبلاد، وكذلك الأكراد المدعومون من الولايات المتحدة، واللاجئين السوريين الذين تجد أنقرة أنها لا يمكن تحمل تكلفتهم.

ولا تزال كل من تركيا وقطر، الحليفين اللذين اجتمعا على فكرة دعم تيارات الإسلام السياسي في بلدان المنطقة، تحاولان وسط كل هذه المعركة استخدام القومية الإسلامية لإبراز القوة في الخارج، على الرغم من أن أهدافها الأساسية لا تزال قومية بطبيعتها أكثر منها دينية، ويقول المحلل الاستراتيجي بول إن أنقرة تقوم اليوم بتعزيز السلطة من خلال الحركات الإسلامية والسياسيين كتعبير عن المصلحة الذاتية التركية كما أن تقارب البلد مع جماعة الإخوان المسلمين منح قطر الطريق لإنشاء قاعدة عسكرية في الخليج العربي لأول مرة منذ أكثر من قرن، والذي بدوره عمل على تقوية علاقات أنقرة بالدوحة الغربية، التي تدخلت في بعض الأحيان لتخفيف ويلات تراجع العملة التركية.

اضطرابات الربيع العربي في عام 2011 على مواجهة الإمكانيات الثورية للحركة الإسلامية، وأعطت دوامة الثورة كلاً من الإسلاميين المعتدلين والمتطرفين فرصة ليحلوا أخيراً محل الأنظمة واستعراض القوة.

فقد استولى الإخوان المسلمون على مصر وجيشها، بينما انطلق المتطرفون في الحرب الأهلية السورية وشرعوا في بناء دول أولية مصممة للتصدير إلى الخارج. وبالنسبة إلى بعض الدول، أثبتت هذه التطورات المقلقة الحاجة إلى التغيير السريع للعلاقة الحميمة بين الدولة والمسجد، خشية أن تصبح الحركات الإسلامية الأخرى قوية بما يكفي للإطاحة بالمزيد من الحكومات.

## حقائق الواقع

تم وضع الحركات القومية الناشئة في دول مثل عُمان والبحرين والسعودية في حالة من السرعة الزائدة، حيث نظرت الحكومات إلى أساس عقودها الاجتماعية وفقاً للمثل القومية التي عمل الإسلاميون على تقويضها لعقود.

وتشترك في معطى رئيسي وهو التطرف والإرهاب تحت تفسيرات دينية مغلوبة. ويؤكد ريان بول المحلل المتخصص في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لدى مركز ستراتفور أنه على الرغم من الدعوة إلى الوحدة في العالم الإسلامي، إلا أن الأيديولوجيا التي تقوم عليها الإسلامية أثبتت أنها غير قادرة على حل الخلافات الوطنية بين الدول الإسلامية المختلفة، كما يتضح من الحرب الإيرانية العراقية المدمرة بين عامي 1980 و1988 التي أعقبتها حرب الخليج في 1990 و1991، والهتات في النهاية المتطرفين مثل تنظيمي داعش والقاعدة.

ويرى بول أن اتباع هذه الأيديولوجيا انقسموا حول الشكل الدقيق الذي يجب أن تتخذه العقود الاجتماعية لدول الشرق الأوسط الناشئة، التي بدأت مساراتها الخاصة بعد إنهاء الاستعمار، واعتقدت العديد من الدول حديثة التأسيس الشريعة الإسلامية في دساتيرها ومحاكمها، وغلقت تقاليدها السياسية بألقاب وطقوس إسلامية.

وفي حين أن بعض الدول قاومت النفوذ الإسلامي الشامل، إلا أن معظمها إما تغلب عليها أو تكيفت في النهاية مع الضغوط المتزايدة للإسلاميين داخل حدودها. وعلى سبيل المثال، ساعدت معارضة الشاه الإيراني محمد رضا بهلوي للوحدة الإسلامية في الإطاحة به واستبداله بالجمهورية الإسلامية عام 1979.

كما تسبب برنامج التحديث المتواضع في السعودية خلال سبعينات القرن الماضي في إثارة رد فعل إسلامي عنيف في مكة في نفس العام، مما أوقع الرياض بتسليم الكثير من بنود العقد الاجتماعي للبلاد إلى الإسلاميين حتى عام 2010 قبل أن تبدأ القطيعة مع هذا التيار بوصول العاهل السعودي الملك سلمان بن عبدالعزيز إلى سدة الحكم والشروع في رسم معالم دولة حديثة منفتحة على الخارج ودون أن تتكبل مشاريعها.

وفي العراق، حتى صدام حسين العلماني ظاهرياً تحول إلى الإسلامية في تسعينات القرن الماضي مع تضائل القومية العراقية بعد الهزيمة في الكويت، مما أضاف جزءاً من العقيدة الإسلامية إلى العلم الوطني العراقي.

فرضت التحولات الجيوسياسية المتسارعة في الشرق الأوسط ولادة حس قومي جديد لدى بعض بلدان المنطقة الساعية إلى التمرد على النظرة النمطية الراسخة في أذهان الكثيرين حول الأسباب الحقيقية وراء ظهور الأيديولوجيا الإسلامية، ومدى استيعابها للمشاكل المتنوعة، التي أفرزها التزاوج بين الدولة والدين، وقدرتها على معالجتها، حيث يرى محللون وباحثون أنها بداية الطريق فقط للتأقلم مع الواقع المموس، الذي يؤسس لثورة فكرية تقطع مع الإسلام السياسي في إدارة الدولة.

لندن - تترسخ فكرة بين المتابعين لديناميكية الفكر السياسي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا مفادها أن الأيديولوجيا الإسلامية التي تدعو إلى إقامة خلافة واحدة باتت تشكل خطراً على الاستقرار، بعد أن كانت مسكناً لإمبراطوريات المنطقة، والتي تلاشت، في ظل تحول دول مثل الإمارات والسعودية نحو القومية لتعريف سياساتها وسلوكها وفق ما تقتضيه المرحلة الحرجة التي يمر بها العالم.

وارتفع منسوب النقاشات في الآونة الأخيرة داخل الأوساط الأكاديمية والسياسية المهتمة بشؤون الشرق الأوسط في الغرب وفي المنطقة العربية حول مسألة إعادة تأسيس مفهوم القومية في ظل ما يحدث من سجلات عميقة حول عدة قضايا باتت الشغل الشاغل لبعض الدول.

ويتفق معظم الخبراء والباحثين على أن هذا المسار الجديد يدور في فلك نقطة محورية طرحت كثيراً للنقاش، تتعلق بالآليات التي قد تكون بيد الأنظمة الحاكمة في المنطقة للتصدي لظاهرة التطرف، وليلصق في نهاية المطاف إلى تأسيس علاقات تكون بعيدة عن الأيديولوجيا الدينية.

وحتى الدول التي لا تزال تدعي تجسيد مثل الحركة القومية، مثل قطر وتركيا، تفعل ذلك فقط كوسيلة لتحقيق غاية قومية، مستغلة ما تتباهى من وعظ للوحدة الإسلامية لإظهار قوة حكوماتها في الداخل والخارج وكذلك كسب التعاطف لدى شعوب المنطقة وبالتالي تجسيد سياساتها على أرض الواقع.

ريان بول

الأيديولوجيا الإسلامية  
فشلت في حل خلافات  
الدول العربية

ويعتقد محللو مركز ستراتفور للدراسات الاستراتيجية والأمنية الأميركي أن هذا الاتجاه ظهر بوضوح من خلال اتفاقية التطبيع بين الإمارات وإسرائيل، حيث تم توجيه ضربة أخرى لفكرة أن المجتمع الإسلامي العالمي، على الرغم من اختلافاته العديدة، يمكنه على الأقل الاتفاق على قضايا مثل القضية الفلسطينية.

وهنا لا بد من تسليط الضوء وبطريقة أعمق على هذه المسألة الحساسة التي باتت تطبق منطقة الشرق الأوسط، والبحث في ما إذا كانت التيارات الإسلامية، أو الأيديولوجيا الإسلامية، تعد النموذج الملمس لشعوب المنطقة والضامن الحقيقي لمسار العدالة في كل أوجهها.

## بداية النشوء

لقد ظهرت القومية الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى كمقابل أيديولوجي لتعدي المثل الأوروبية، وعندما حطمت الإمبريالية الأوروبية الإمبراطورية العثمانية واستعمرت العالم الإسلامي، سعى القادة المسلمون إلى تبني أنماط جديدة من الفكر السياسي لقلب تيار القوة الغربية.

وخلال تلك الفترة اعتنق البعض نموذج الدولة القومية للمستعمرين. واشتهر الرئيس التركي مصطفى كمال أتاتورك، الذي حكم في الفترة الممتدة بين عامي 1923 و1938، بإلغاء الخلافة السنية في محاولته لتحويل رما الدولة العثمانية إلى تركيا حديثة قادرة على المنافسة.

## أيديولوجيا مُكبلة

مع اشتداد الأزمات وتكاثر التهديدات والصراعات في المنطقة التي تعصف بأمن دولها القومي، وفي ضوء البحث عن سبل مواجهة هذه المشاكل ومسبباتها، عاد الحديث بقوة عن القومية العربية المشتركة كإحدى أهم وسائل التصدي لهذه الصراعات التي

